القلب وحده لا مفهومه المذكور لا يقال صرف الجميع افعال متعددة فلا يصدق عليه فعل واحد
لانا نقول هو فعل واحد قد تعدد متعلقه فلا ينافي وصفه بالوحدة كما يقال صدر عن زيد فعل
واحد هو ضرب القوم مثلا وتحقيقه ان المركب قد يوصف بالوحدة الحقيقية كبدن واحد
والاعتبارية كعسكر واحد وصرف الجميع من قبيل الثاني كما لا يذهب على ذي مسكة والمدح
لغة بناء على مغايرته للحمد الثناء على الجميل مطلقا وعرفا ما يدل على اختصاص الممدوح بنوع
من الفضائل ثم لا يخفى بعد تامل ما سبق النسبة بين معانيها فالوجهي يكون بين عام وبين كل
من الحمد العرفي والشكر اللغوي مع المدح اللغوي والتساوي بان يتصادقا فكليا من الجانبين يكون
بين الحمد العرفي والشكر اللغوي وعكسه والمطلق (بالنظر لشرط الحمد) بان يتصادقا فكليا من جانب واحد يكون
بين الحمد العرفي والشكر اللغوي اذا قيدت النعمة في اللغوي بحصولها للشاكر والا كانا متحدين قاله
السيد وبين الحمد اللغوي والشكر العرفي بالنظر لشمول متعلقه لله ولغيره واختصاص متعلق الشكر
به تعالى وبين الشكرين لصدق العرفي بالنعمة وغيرها والتباين يكون بين الحمد اللغوي بالنظر
والشكر العرفي لصدقه باللسان فقط والشكر انما يصدق بذلك مع غيره وقيل الحمد
والشكر مترادفان وقيل الحمد مختص بالقول والشكر مختص بالفعل قال السيد رحمه الله اعلم
ان القول المخصوص ليس حمد المخصوص بل لانه دال على صفة الكمال ومظهر لها ومن ثمة
قال بعض المحققين من الصوفية حقيقة الحمد اظهار الصفات الكمالية وذلك قد يكون
بالقول كما عرفت وقد يكون بالفعل وهذا اقوى لان الافعال التي هي آثار السخاوة تدل عليها
دلالة عقلية قطعية لا يتصور فيها تخلف الاقوال فان دلالتها عليها وضعية قد يتخلف عنها
مدلولها ومن هذا القبيل حمد الله تعالى وثناؤه على ذاته وذلك انه تعالى حيث بسط
بساط الوجود على ممكنات لا تحصى ووضع عليها موائد كرمه التي لا تتناهى فقد كشف
عن صفات كماله واظهرها بدلالات قطعية تفصيلية غير متناهية فان كل ذرة من
ذرات الوجود يدل عليها ولا يتصور في العبارات مثل هذه الدلالات ومن ثمة قال عليه الصلاة والسلام
سبحانك لا احصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك انتهى ووجه قوة دلالة
الافعال على الاقوال ان دلالة الاولى فيما نحن فيه عقلية ودلالة الثانية وضعية ولا ريب ان العقلية
يستحيل تخلف مدلولها عنها بخلاف الوضعية وبهذا يندفع ما يتوهم من مناقضة هذا القول
لقول بعض الاصوليين ان دلالة القول اقوى من دلالة الفعل ووجه اندفاعه ان المقامين
مختلفان كما لا يخفى على من تامل ما تقرر وانما آثر المصنف الجملة الاسمية تاسيا بالقرآن الكريم
لافتتاحه وافتتاح سور منه بعد البسملة بها ولانها الصيغة الشائعة للحمد اذ القصد بها الثناء
على الله بمضمونها من انه مستحق لجميع الحمد لا الاخبار بذلك وانما لم يعول على ما عدل اليه جمع
محققون من التعبير بالفعلية لان التحقيق ان الاولى ابلغ مع ما فيها من كمال التاسي واما قول

بعض

بعض المحققين ان الثانية ابلغ لانها تتضمن الثناء بجميع الصفات اذ المعنى اصفك بجميع صفاتك
اذ الحمد كما مر الوصف بالجميل وكل من صفاته تعالى جميل ورعاية جميعها ابلغ في التعظيم
المراد بما ذكر اذ المراد به ايجاد الحمد لا الاخبار بانه سيوجد وتلك بواحدة منها وان لم تراع
الابلغية فالبعض الذي اريد به الثناء في الفعلية لصدقه بتلك الواحدة وبغيرها الكثير اعم منها
فالثناء به ابلغ منه بها في الجملة لكنه بها من حيث تفصيلها اوقع في النفس منه به انتهى وقوله
من حيث تفصيلها يحتمل ان يكون اخذه من مفاد اللام من الاستحقاق او غيره او من مفاد الاستغراق فيه
الدالة على الاحاطة بجميع المحامد الشاملة لكل فرد فرد من الحمد وما يقابله من النعم وكلاهما صحيح
واما توجيه غيره ابلغيتها بانها دالة على التجدد المستفاد استمراره من المضارع وهو اليق بالمقام من الثبوت
والدوام المستفاد من الاسمية لدلالته على ما يقابل بالحمد من انواع الانعام الذي استمراره متجدد على الدوام
فلا تخلو لمحة من احسان وبانها نص في قولي الحمد بالنفس بخلاف الاسمية فانها ظاهرة فيه
فقط من حيث ان قصد الانشاء بها الدال عليه قرينة المقام والاجماع على ان الآتي بها حامد شرعا
يقتضي ذلك فمردود جميع ذلك اما الاول فلان الاسمية تفيد اثبات جميع المحامد على وجه
اظهر مما مر لافادتها استغراق جميع المحامد باللام وهو اظهر من دلالة المقام ودعوى منع افادتها
ذلك بانه ليس فيها الا ثناء بصفة واحدة بخلاف الفعلية كما مر ممنوعة بان الاسمية
تفيد الثناء بان كل حمد مستحق له او مختص به كما دل عليه لاما التعريف والجر لان الاولى ان
كانت للاستغراق فظاهر او للجنس كما قال به الزمخشري فيؤخذ من دلالة الثانية على الاستحقاق فيه
للجنس او اختصاصه به انه لا فرد منه لغيره اذ لو ثبت لكان الجنس في ضمنه فيأتي في ذلك
الاستحقاق او الاختصاص فالثناء بها وان كانت بصفة واحدة اظهر في رعاية الابلغية لتضمن
تلك الصفة الثناء بالجميع اجمالا لان كل حمد معناه كل ثناء بجميل وكل من صفاته تعالى
جميل ولا يرد على الزمخشري ان ما يوجب الحمد من افعال العباد بناء على مذهبه في الاعتزال
من خلقهم الافعال لان منه انه تعالى خالق القوى والقدر فهو مستحق له مختص به بهذا الاعتبار
او للعهد كما نقله ابن عبد السلام واختاره الواحدي فكذلك اذ المعنى ان الحمد الذي حمد الله به
نفسه وحمده به انبياؤه واولياؤه مختص به والعبرة بحمد من ذكر فلا فرد منه لغيره وانما
حصر باللام فيما ذكر ليدخل ثناؤه تعالى على نفسه فانه قديم لا يوصف بالمملوكية ومن لزم الاول
كفر لاقتضائه جعله تعالى محلا للحوادث لحدوث حمدنا فقد وهم لان ثبوت شيء لآخر لا يقتضي
قيامه به كثبوت الدار لزيد واما الثاني فلانه نقض ما صدق عليه مفاد الاولى من الدوام والثبوت
الشامل للماضي والحال والاستقبال ولانه لا يأتي الا في فعلية في مقابلة نعمة والكلام فيما هو اعم من
ذلك واما الثالث فهو غني عن الرد هذا ودلالة الاسمية على ما مر نوزع فيه بان خبرها ظرف وعامله
فعل بناء على ما ذهب اليه ابن الحاجب والرضي وكل اسمية خبرها فعل تفيد التجدد كالفعلية

Copyright to King Saud University